الفصل الثالث

الأدب الإسلامي في تراث نيجيريا

طاقة عقليّة فنيّة متميّزة بالشعائر الإسلاميّة المجيدة ، نشأت منذ أشرقت نيجيريا بنور ربّها ، واتّخذت الاتجاه الحنيف منهج حياتها في سائر النواحي ، وذلك بأنّ المجتمع الذي ينتمي إليه الأديب المسلم لا يقبل منه إلا النصّ الملتزم بشعائر هذا الدين ، فسهل على المنهج الحديث أن يلقى جذوراً عميقة في واقع تراثنا القديم ، وهو أدب قد روعيت عند صياغته في غالب موضوعاته وأشكاله روح الإسلام التي أنار بها المولى جلّ شأنه إلى البشرية طرق مصالحها المثلى .

أما الفكرة فقد حدّدوا مناهجها في ثلاث شعب يحصرون فيها عقولهم ، ويبادلونها بالرأي والقياس والاجتهاد لدى أدبائهم الناثرين والشعراء على اختلاف الأذواق والملكات وعلى تباين المواقف والاتجاهات ، ردّا قائما على الخصوم والمعاندين ، أو تلوينا وإبداعا لملاحقة ركب الحياة ، وقد جمع اللقاني تلكم الشعب الثلاث في قوله :

في عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيد سالك

وإذا ما انصرفنا من الانتماء الحزبي في كلّ نزعة من تلك النزعات فإنّ الأصول العامّة التي ينتهي إليها الفكر الإسلامي لا تعرف المذهبية والطائفية والعصبية ، ذلك لأنّ مصدرها المؤول إليه الكتاب والسنة والقياس والإجماع عند التقليد ، وكانت غايتها تكوين الإنسان في حالة الفرد والجماعة لترقي سلم الروابط المثلى مع الخالق والخلق والكون والحياة على ضوء ما شرعه الله في كتابه ، وبيان رسوله ـ ﷺ ـ .

وبناء على ذلك فإنّ أدباؤنا ينسجون فكرهم على المنهج الإسلامي ، فيبيّنون ما لقيم العقيدة والعبادة والسلوك عظمة وجلالا تتجلى ثوابت فكرية يتعاقب الأجيال على اعتقادها مثلا عليا من القدرات العقليّة الكبرى لا تزحزحها من منازلها فلسفة زمان ولا جدل عصر ، لأنها حجة الله الخالدة وبرهانه الساطع .

ومن ثمّ ظلّ الالتزام الإسلامي في المنهج الأدبي قضية الحياة والمصير ، والهدف والغاية ، ولا تزال هذه القيم الفكرية سمة بارزة تنعكس على فنون أدبية تعاطاها أدباؤنا شعرا ونثرا، بل تعدّ موطنا يناضل في سبيله تراثنا الأدبي . وكما كانوا يصنعون لفكرهم مناهج محرّرة كذلك اعتادوا أن يشكّلوا بيانهم على مقاييس مقرّرة ، مراعين لأسلوبهم العربي جدّ المراعاة الذوق السليم الذي يقيم إيحاءات دقيقة توظّفها أوطار الأجزاء ، وفي القديم يرسمونها رسما حاسما في علوم اللغة ، والاشتقاق ، والنحو ، إلى جانب العروض والقافية ، ثمّ استجدّت الحياة فاستدعى البيان العربي علم المنطق ، وعلم الجمال ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم الأصوات .

وقد يبالغ بعضهم إلى الالتزام القاطع على البيان العربي وحده ، لأنّ هذا الأدب الإسلامي لا يخاطب إلاّ صفوة الفقهاء الراسخين في علم العربية ، وبقدر ما يتقوى المجتهد في تفقّه هذا البيان يزداد قياسه وجاها ، وكلّما يبتعد عن فهمه يغمض ما يذهب إليه ويتضاعف اختلالا وتعقّدا .

فلا غرو إذا آثر أدباؤنا البيان العربي أداء لسانيا خالصا في صياغة فنونهم يستحيل استبداله ، وتجب العناية العظيمة باكتساب كلّ ما ينتمي إليه من شعب ووجوه ، وعلى الرغم مما للعربية من تعدّد أنواعها ، فإنها تتلاقى فروعها في خصائصها ومميزاتها وحدة متماسكة في أداء المعاني والأغراض ، ولذا ، كانوا يولون الفصاحة اهتمامهم ، ويتخيّرونها على العجمة والركاكة ، وشرعوا على أنفسهم في تحصيل سليقتهم وملكتهم سننا متباينة على حسب الطاقة ، وثبت أنّ قوة إيمانهم بالعربية جعلتهم يشترطون البيان على أنفسهم عند إبداعهم ركنا

هاما لا يبغون به بديلا ، ومن المقطوع به ، أنّ جهادهم في سبيل الأدب الإسلامي لا ينحصر في الدفاع عن أفكاره وقضاياه ومعانيه فقط ؛ بل كانوا يناضلون في سبيل ألفاظه وتراكيبه وصوره ، إلى أن أضحى ميدانا جليلا يتسابقون إليه ، ويتحمّسون فيه ، ويستأجرون من الله حتى تعود العربية إلى مكانتها في الإبداع ذات خصائص وقيم لبناء كلّ ركن من أركان الكلام الرائع على مدارج الحياة الأدبية ، وبهذا ترسخ أسس أدبنا على معالم واضحة .

* * *

أصول الأدب الإسلامي في نيجيريا

من المؤكّد أنّ الشعر أقدم من النثر لما فيه من قوى التأثير في الفكرة ، والعاطفة ، والخيال ، والموسيقى التي تؤتي قدرة الانفعال خصوصا في مرحلة الأمية ؛ لأنّ القوم كانوا في سائر أمورهم يستعينون بالأشعار لتقييد العلوم والأمور النفسية والطبعية التي يخشى ذهابها ، ولم يلبث أن كانت دواوينهم صورة لمآثرهم وآمالهم وآلامهم ، ومشاهد وجودهم[1] ، ثم إنّ حاجة الدعوة إلى الشعر لبيان شعائر الإسلام ومناصرة قضاياه أمام المناوئين قد أيقظت وعيهم ، ونمت شعورهم ، وأذكت نازعتهم لاستغلال الشعر صوتا عاليا بالدين ، ولسانا قويّا للدعوة وأداة للأدب الناشر لمزايا القيم والمثل ، وإبادة رزايا الخبائث والرذائل ، ولا غرو إذا ظلّ الشعراء يحتلّون صفوفا عليا من بين طبقاتهم لما لهم من ألسنة ذربة ، وأصوات رنينة لإمالة الناس إليهم ، وجذب عقولهم[2] ، يشبه الوضع واقع العرب في أوّل عهدهم بمرحلة التصنيف والتدوين على نحو ما يقول ابن رشيق : « وكان الكلام كلّه منثورا ، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها ، وطيب أعراقها ، وذكر أيامها الصالحة ، وأوطانها النازحة ، وفرسانها الأنجاد ، وسمحائها الأجواد ، لتهز أنفسها إلى الكلام ، وتدلّ أبناءها على حسن الشيم ، فتوهّموا أعاريض جعلوها موازين الكلام ، فلما تم لهم وزنه سمّوه شعراً ، لأنهم شعروا به ، أي فطنوا»[3] .

---

(1) الإلوري ، نظام التعليم العربي وتاريخه في العالم الإسلامي ، مكتبة وهبة ، ط٤ ، عام ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م ، ص: ١٢٣.

(2) الإلوري ، مواقف متوسطة من مركز التعليم العربي الإسلامي ، جمع نقابة المركزيين لمناسبة العقد الرابع ، مطبعة المعرفة ، القاهرة ، عام ١٤١١هـ ، ص: ٤٦-٦٢.

(3) ابن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، دار الجيل ، بيروت - لبنان ، ١/٢٠.

وواضح أنّ إيمان أدبائنا رصين بمنهاج الله في سمو العقيدة السمحة وغرّة الشريعة العادلة ، ودقة السلوك السليم ، وألهمهم أن يتلمسوا طرق التصور الإسلامي في إبداع أنماطهم الأدبية ، لأن غايتهم القصوى تتوقف على بناء مجتمع فاضل قائم على أسس العدالة الاجتماعية والعاطفة الإنسانية ، والرحمة الشاملة ، والفضيلة الكاملة ، لإقامة قواعد البر والتعاون والإحسان على أسس القيم الإسلامية ، ومن هنا تتجلى مظاهر موضوعاتهم في شعب ثلاث آتية :

أولاً : الحبّ الإلهي الخالق

إنهم كانوا يتغنون تعبيرا تغمره عقيدة وشرعا بمناجاة الخالق المنفرد بالربوبية والألوهية مستلهمين معاني أسمائه ، مع تدبّر صفاته ، وتيقّن آياته ، وقد تجلّت حقائقه في سائر نواميس الحياة والطبيعة ، والكون ، سواء ما يقدر عليه العقل الإنساني وما لا يقدر عليه ، وبموجب ذلك يلذّ ذكر نعمه وثناء آلائه ، ولا خلاف بينهم في ذلك ولكلّ صنف منهجه وذوقه وطاقته ، وهم جميعا في طبقة واحدة في النسك والتبتّل والابتهال ، فتشرق على قلوبهم وأرواحهم شمس الحقيقة واليقين ، ويغمرهم من أنوار المحبة والوجد والأنس ، ويفيض عليهم من نعم المواجد وآلاء الفيوض وغيوث البركات ما أقدرهم الله عليه من بدائع المواهب ، والمقطوع به أنّ روافد هذه المناجاة عبادة ، وطاعة ، وحبّا ، وهياما ، وولاء ، وركونا ، ووفاء ، وإخلاصا ـ وكلّها غايات قصوى ـ تصدق عليها العبارات والكنى كلّما تصفو السريرة ، وتقوى صلات العبد بربّه ومولاه .

ثانيا : عظمة الرسول ﷺ

إنهم كانوا يقصدون الرسول ـ ﷺ ـ عند التعبير بالخلق الأكرم ، والإنسان الأعظم ، لأنه قد تجسّد فيه كلّ ما تقع عليه رؤيتهم الشفافة من سمو المعاني ، وجلال الأقدار والأوصاف مستخلصة في كونه قدوة حسنى ، ومثلا أعلى للإنسانية ، اصطفاه الله أعلى الأنبياء رتبة ، وأرفع الرسل مكانة ، فكان أتقاهم لربّ العالمين ، وأطوعهم له ، ولم تشهد البشرية على مرّ تاريخها إنسانا

أعظمهم لباقة ومرونة على أداء الأمانة والرسالة إلى الناس رحمة الله لهم ، وهو أحرصهم على منافعهم ، وأشفقهم على ما يعانونه من أنفسهم ، فقويت به عرى الأخوة الكبرى ، وأشرقت به حقيقة القيادة ، والرعاية ، والطاعة ، والامتثال ، ولا يلهون أن يجعلوا تمثّله واقتداءه صلوات الله وسلامه عليه بهذه القيم والمثل جسرا أمينا إلى الإشادة بأعلام قاموا بنشر الإسلام عدالة وشجاعة ، إحياء ، لسنته المجيدة يتوارثها من أنعم عليهم من صفوة خلقه ، وبهذه المهمة الجليلة يستحق الخلق خلافة خالقه ، وكلّما سادت هذه المعاني في النفوس تحكم المجتمع روابط إيمانية بين الأفراد والجماعات ، وخاصّة فيما يتأزم دائما بين الراعي والرعية .

ثالثاً : الإنسانية

كانوا يتصوّرون أن بدائع الله الرائعة وصنائعه في آياته الباهرة لا يتم بقاؤها وصلاحها في الكون والحياة كما أراد الله إلاّ إذا تمسك الإنسان بالطرق المثلى في تسيير خلافة الله في الأرض وفق إرادته تعالى ، إذ اختار ذلك الخلق على سائر أجناسه عدالة منه ، فالفضائل والقيم الإنسانية من حب وأمانة ، وعدالة ، وصدق ، وبرّ ، وتعاون ، تحكمها العقيدة الراشدة حسب التصور الإسلامي في هدي الله ـ جلّ شأنه ـ وخلقه وكونه ، وهي القوام الأساس لتعمير الحياة ، وبها تزهو وتتزين ، وتروع وتروق جمالا وجلالا ، ومظاهر العمران ، وقوى الحضارة والمدنية لا تستقيم دعائمها كما تنشدها الإنسانية إلاّ إذا كانت قواعد القيم والفضيلة على أسس الإيمان التي أرسى عليها البارئ بنية الكون ، وكلّ مفاهيم ومصطلحات واتجاهات معاكسة لها تبوء بالفشل والانهيار ، اللهم إلاّ أنّ تلك المقولة ذات حقّ وثبات وقرار لا يجدي تفعيلها إلا بعرضها في أثواب قشيبة تحكم أذواق كلّ عصر وجيل ، وتستند إلى بيان ما لها من منافع ومصالح مع كشف عورات الخبائث وفضائحها من رذائل ، وما تترتب عنها من نتائج وخيمة ، وبهذا تتضح معالم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا شكّ أنّ التغني بهذه الشعب في فنون قولية يؤتى ما لتراثنا من اهتمام بتكوين أصول أدبهم على التصوّر الإسلامي في الخالق والخلق والكون والحياة .

أطوار الأدب الإسلامي

لقد مرّ أدبنا النيجيري بمراحل وأطوار قبل أن يستقرّ منهجا إسلاميّا محدّدا قيما نجملها فيما يلي :

أ- طور الاقتباس والمحاكاة :

إنّهم كانوا يستحسنون أن يكون في نماذجهم الأدبية يوم الحفل والجمع آي من القرآن والسنة ، فإنّهما يورثان الكلام بهاء ووقارا وسلسا[1] ، كما كانوا يتمثلون في كلامهم ما توفر لديهم من آثار السلف الصالح من مقطعات ، وقصائد ، وأرجاز ، ونتف ، ويشدّون أيديهم على المطابقة والمناسبة بين المضمون والشكل ، ويعدّون من لم يراع ذلك ممن لا يميّزون أين الذنب من الرأس ، والركاكة من الفصاحة ، والرطانة من البلاغة ، وأبرز مصادر هذا الطور ، القرآن الكريم ، وكتب السنة المطهّرة ، والسير ، والمغازي ، وما يتلو ذلك من دوا ن الصحابة كلامية كعب بن زهير ، والحكم العلوية المنسوبة إلى الخليفة الرابع الإمام علي رضي الله عنه ، وزهديات حفيده علي بن الحسين ، وما صفا من نصوص جاهلية لبناء القيم على ألسنة الأحناف .

ب ـ طور الممارسة والأداء :

كانوا يعتمدون على نصوص العرب الوافدين من مشارقة ومغاربة ، ويعبونها مضمنين في إبداعهم ما يروقهم من أفكار وأساليب وأخيلة ، وأغلب مصادر هذا الطور مقصورة ابن دريد ، ولامية ابن عمر الوردي ، والطغرائي ، والمقامات الحريرية ، وبردة البوصيري وهمزيته ، والوترية ، والبدماصية ، والوعيظية ، ومدح قبا ، والعشريات ، والعشرينيات .

---

(1) الجاحظ ، البيان والبيان ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، المرجع السابق ، دار الفكر ، بيروت ـ لبنان ، ١١٨/١.

وعندئذ ينقطع فيه الشعراء إلى ذواتهم وأنفسهم، ويصفون كلّ ما مرّوا به وما عاشوه من أحداث وتيارات، وتدخل في هذا النطاق رائية النجيب التكداوي[1]، وعطية المعطي لعبد الله ثقة[2]، وصرف العنان لمودي الكشناوي[3]، ودالية الشيخ عثمان[4] ولاميته[5] وعشريته[6]، وديوان عبد الله ابن فودي[7]، وديوان محمّد بلّو[8]، ولامية البيغوري[9]، وجيمية الشيخ يوسف[10]، وقصيدة «تجدني»[11]، والفواكه الساقطة[12]، ومفتاح الوعظ

---

(1) أوردها محمد بلّو في كتابه إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، مطبعة الشعب، مصر، عام ١٩٦٤م، ص: ٣٠.

(2) وهي قصيدة متداولة بين النساك في نيجيريا، تقع في ألف وخمسمائة بيت جاء منها:

والحال أوصاف خلق قد بدا لهم ... من قبله قبل قول الخلق في النسم

وأفضل الحال منا طاعة وتقى ... وكل حال سوى ذا ينتفي الحكم

(3) قام الإلوري بتحقيقها ونشرها مرتين إحداها بمصر، والأخرى في نيجيريا.

(4) وهي مدح للرسول ـ ﷺ ـ قام كثير بتخميسها، ومن بينهم أخوه عبد الله بن فودي، ومطلعها:

هل لي مسير بين طيبة مسرعا ... لأزور قبر الهاشمي محمد

(5) مدح بها الكنتي، وهي في عداد قيد الأوابد لما فيها من ألفاظ حوشية.

(6) وهي على طراز العشرنيات للشيخ الفاضل الفازازي.

(7) تزيين الورقات لبعض ما لي من الأبيات، مخطوط بمركز الدراسات الإسلامية بصكتو، ومراكز المخطوطات.

(8) مخطوط جمعه الوزير جنيد تحت عنوان: «إفادة الطالبين».

(9) وهي في مدح الشيخ بوبي كبير علماء إلورن غير بوبي الصكتي.

(10) في مدح الرسول ـ ﷺ ـ، وتطلق عليه «الجيمية الكبرى»، موجودة بمكتبة الكاتب الخاصّة.

(11) قصيدة يتداولها العلماء عند عقد المواعظ، لُقِب بها قائلها، ويقال إنه علمه على يدي أبي بكر أحمد إكوكورو.

(12) مجموعة قصائد العلماء على منهج الأدب الإسلامي في القيم والأخلاق والمثل، نشره الإلوري في طبعات عديدة.

والإرشاد[1]، وما ورد من تراجم العلماء والأدباء في تطريز الديباج لأحمد بابا التمبكتي، وفتح الشكور في أعيان بلاد التكرور لمحمد الطالب الولاتي، وإنفاق الميسور في تارخ بلاد التكرور لمحمّد بلو بن عثمان بن فودي، والإسلام في نيجيريا وعثمان بن فودي، ومصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية، للشيخ آدم عبد الله الإلوري، وإلى جانب دواوين الشعراء والخطباء والمترسّلين، وغيرها مما تزخر به المكتبات العربية عند تدوين الأدب الإسلامي.

يقول عبد الله بن فودي في مقدمة ديوانه مبيّنا غرضه ومقصده:

وسميته بتزيين الورقات لبعض ما لي من الأبيات والوصايا والوقائع والمديح والتهنئة والمرثية والافتخار، وتبين سبب نظم كلّ قصيدة منها، وفي ذلك بيان أحوالنا في ابتداء الأمر إلى انتهائه لينتفع بها من أرادها بالاتعاظ بمواعظها والاعتبار بما حصل لنا في تلك الأحوال من نعم الله للشّكر عليها وذلك مقصود الكتاب[2].

تلك هي أصول أدبنا وأطواره، وهو بلا شكّ كان الإسلام ميلاده ومحرّكه، وحياته وبقاءه ما بقيت له الحياة، وإلا فإنّ الشعوب المسلمة لا يلقى بالا بالأدب العربي إلاّ ليكون وسيلة لفهم الدّين الحنيف، قال أحدهم:

ذلك بأنّ الإسلام هو الذي يمهّد السبيل للأدب العربي في بلاد العجم، وإنّما يتعلّم المسلمون العربية بالدرجة الأولى لفهم أصول الدين، أمّا تعلّمهم إيّاها للإنتاج الأدبي ففي الدرجة الثانية، وقلّما يتمّ هذا إلاّ حيث تقوم الحكومة على أساس النظام الإسلامي، ويكون الفقهاء أهل الحلّ والعقد، ويقوم الأدب

---

(1) ألفه الإلوري لتدريب طلابه على ركوب المنبر في الخطب والمواعظ، عنوان الكتاب: مفتاح الوعظ والإرشاد، مطبعة الإسلامية، أغيغي، عام ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

(2) عبد الله بن فودي، مقدمة تزيين الورقات. لبعض ما لي من الأبيات مخطوط بدار الوثائق، ص: ٣.

العربي على الثقافة الإسلامية من قواعد اللغة ، كالنحو ، والصرف ، والبلاغة ، وذلك لأنّ الأصول هي التي تمدّ الفروع ، والبيئة هي التي تخلق الأديب ، وأنّ المنطقة هي التي تخرج النبات ، وأنّ الأرض هي التي تؤثر على ما لها ، فلا غرو أن يتّجه أدبنا النيجيري الاتجاه الديني[1] .

وواضح أنّه لم يتغلّب على نصوصهم مصادر القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهّرة ، وآثار السلف الصالح ، إلاّ لثقتهم بأصالتها العربية . وقناعتهم بسموّ قوتها في البيان ، وتذوق سلامة اعتمادها في الدربة والممارسة لاكتساب الملكة والمقدرة ، وعندما قوي عودهم ، واشتدّ ساعدهم في الفكرة والشكل ، قاموا يشرحون شرحا وافيا بما أوتوا من بدائع الكلام أصول الإسلام وفروعه وآدابه ومزاياه ، وتمثّلوها في تصرفاتهم تمثّلا ينبئ عن قوة قناعتهم وإيمانهم بما يقولون ويفعلون ، وكذلك نازلوا منازلات عنيفة صنوف البدع من خرافة وشعوذة ، فإذا لم تقع في البلاد عقيدة الحشوية والنائية والرافضة والشعوبية كما حاربتها المعتزلة ، وإذا لم تحدث كذلك فتنة خلق القرآن والتجسيم والجهمية كما دكتها دكة عنيفة الأشعرية ، فإنّ علماء المنطقة قد سمعوا ورأوا البدعة وأشكالها في العقيدة والعبادة والسلوك التي يمارسها مجتمعهم .

تلك البدع التي كان مصدرها نبذ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ظهريا وإيثارا لما سواهما عليهما ، وابتغاء لجلب حطام الدنيا ، ومن ذلك ما استفتى فيه الإمام السيوطي شمس الدين الصنغائي :

ومن فقهائهم من عادته ترك القرآن والسنة ، وأخذ الرسالة والمدونة الصغرى ، وابن الجلاب ، والطليطلي ، وابن الحاجب حتى عادوا من يفسّر القرآن ، ويقولون ما قال أبوبكر الصدّيق إن كذبت على ربي أي أرض تحملني ، وإذا سمعوا آية تُتلى للتفسير نفروا نفرة الحمر الوحشية[2] .

---

(1) الإلوري ، مصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية ، مكتبة وهبة ، عام ١٤٢٣هـ - ٢٠١٢م ، ص: ١٦.

(2) السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر ، الحاوي على الفتاوي ، ١/٢٨٧، ٢٨٨.

وعلى شاكلة ذلك قام المغيلي سندا قويّا للأمير «أسكيا» محمّد الصنغائي، ومحمّد رُنفا بن يعقوب الكنوي، وعلى أرجح الأقوال أمير برنو، وعلى منهجه سار تلامذته من العلماء لمناهضة هذا الطغيان بعديد من آثارهم في أحقاب متلاحقة، ومن أبرزهم سليمان وابنه النجيب التكداوي الذي يقول ردّا على المنجّمين:

«من عذيري من أناس نجمُوا ... أفسدُوا الدّين وأبدوا كلّ ضر
تركوا علم الكتاب المنزل ... وحديثا جابه هادي البشر
وعلوم الشرع والفقه التي ... تنفع المرء وتحميه الخطر
صرفُوا الهمّ إلى مكسبهم ... لحطام زائل لا يستقر
آثرُوا الدنيا على أخراهم ... لم يبالوا ما يؤديهم لضر
علم أوفاق رأوه حلية ... لاكتساب المال والجاه المضر
جعلوه وصلة تدنيهم ... لنبي الدنيا فآبوا بغرر
لقبوه علم سرّ كذبوا ... ما هو السر ولكن علم شر
إنّما السرّ علوم بثّها ... أولياء الله أصحاب النظر
سلهم هل يعرفون حكم ما ... قد تعاطوه لدى أهل البصر
ولعمري هو دهليز الردى ... ولكفر قد يؤدي في العبر
ما ترى فيمن تقضى عمره ... لارتصاد في شموس وقمر
يرتجي السؤل ودفع الضرّ من ... هذه الأشياء بئس المنتظر
يا عباد الله يا أهل التقى ... أبغضوهم واهجروهم بالهجر
أفسدوا الدّين وأطفوا نوره ... هم عداة الدّين في هذا العصر»[1]

---

(1) السلطان محمد بلّو، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، مطبعة دار الشعب، مصر، ١٩٦٤م، عام ص: ٣٠.

إنّه لا عذر لمن آثر الملفّقات المختلقة على كتاب الله وسنة رسوله ، لما لهما من دقّة الفقه وقناعة الفكر ، وروعة الشريعة ، حين تتوهم مزاعم المخدوعين المشعوذين فيرونهما يعوقان مسيرة الحياة اغترارا بما يمليه عليهم الشياطين من زخرف القول تخرّصا بأنّ النجوم والأوفاق والطوالع ذات قدرة تمكّنهم من منبع الحكم ومصدر الحقائق وجلب الأسرار ، وإيمانا بما يتكلّفه أولياؤهم من الجنّ والإنس في حلّ رموز الكون وتفسير كوامن الحياة لجلب حطام الدنيا وإيثار منفعها على الآخرة .

إن من أبشع صور الابتداع إحاطة الأجرام والطبائع بهالة القداسة العلمية والحرمة المتناهية ، ولا يتجرّأ عليه إلاّ من سولت له نفسه الحقارة والدناءة والسخافة تراضيا بأن يرفع ما دونه خلقا وعقلا ومنزلة إلى صفوف الألوهية والربوبية ، ألا ترى أنّ وجه الأدب الإسلامي جلي بارز متمثّلا في عظمة المقاومة العنيفة للبدعة الشنيعة ، وأولى بالتكداوي أن يعنف ويغلط القول ، لأنّ هذا الداء الاجتماعي لا يترتّب فساده على مرتكبه وحده ، بل يبرز معول هدم لحركة الحياة النشطة إذا ما انخرطت في نفوس الناس البدعة وتراضوا في استنطاق الطوالع ، وتصديق الأجرام الصامتة وتحقيق مخيلاتها ، فيخلد الناس إلى الكسل والدعة فلا يغدو الكسب الحلال والجد والسعي حميدا ، إذ كانوا يرصدون الطوالع وما يشابهها مما يتخذه الخراصون معتقداتهم وموطن إيمانهم في رجم الغيب واستكشاف السرّ لجلب المنافع والمصالح العاجلة استغناء به عن السعي في مناكب الحياة .

وقد خلف النجيب التكداوي أدباء بارعين شاعت في عهودهم أصناف البدع والخرافات ، ومنها ما يجحظ وجهها على النصح والإرشاد ، ومنها ما يتصل بالجاه والملك ، ومنها ما كان منشؤها من التعصب القبلي ، فقام المصلحون بهمم عالية لإخماد هذه الفتن إحياء للسنة ، ومن أمثالهم الشهيد ولوند ، والبكري ، وعبد الله ثقة ، ومودي الكشنوي ، وجبريل بن عمر المرتي .

وإذا ما انصرفنا إلى عصر الجهاد ، فإنّ الأمر يزداد وضوحا حين أقاموا أدبهم لا على محاربة الأوضاع الجاهلية فقط ، بل استمرّوا بارعين بما استجد على زمانهم من أحداث مجيدة في تاريخ الإسلام ، وقيام قوته ، فرصدوا طاقاتهم الأدبية لكلّ مرحلة من مراحل نشاطه الدعوي ، وما قاموا به منافحين عن الدولة الإسلامية التي بنوها على أنقاض البغي والظلم والجور مبيّنين صحّة انتمائهم إلى عصر النبوة ، والخلافة الراشدة لعقد أوجه الشبه القوي بين ماضيهم وحاضرهم من حيث البدء بالتعليم والدعوة ، ثمّ الهجرة فالجهاد ، وإقامة الدولة العادلة ، وما يجب من ضرب سياج محكم عليها لصونها وحفظها ، وقد صوّر أدب هذا العصر تلك المعاني السامية تصويرا خالدا ، فكان الأستاذ عبد الله بن فودي فارس حلبتهم الذي يقول في مدح كبير شيوخهم جبريل بن عمر وتلامذته المخلصين أمثال الشيخ عثمان ، ومصطفى ، والفربري :

جبريل من جبر الإله به لنا ... دينا حنيفا مستقيم المنهج

وله شبول نائبون منابه ... والشبل عند السبر مثل الخزرج

فغدا له نور الزمان مساعدا ... أو ساعدا في فتح باب مرتج

وابيض وجه الدّين بعد محاقة ... واسودّ وجه الكفر بعد تبلج

والسنة الغراء صبح ينجلي ... والبدعة السوداء ليل يدجج

ودعا إلى دين الإله ولم يخف ... في ذاك لومة لائم أو فجفج[1]

ومن المحقق ، أنّ القصيدة برمتها لم تضرب أوتارها لوصف تلك الأحداث في ظروفها الخاصّة فحسب ، بل تتجاوز حدود زمانها ، لأنّ البدعة قد استقرّت في نفوس الناس منذ آماد بعيدة ، وخيل إلى الجهال أنّ هذه الأشواط الشاسعة التي قطعتها لم تعد للسنة أن تلاحقها فضلا أن تسيطر عليها وتبيدها ، على أنّ

(1) عبد الله بن فودي ، تزيين الورقات ، ص : ٢٢.

هذه الهمة العالية قد شغلت ولا تزال تشغل بال كلّ مؤمن متيقظ لمحاربتها واستئصالها لإنقاذ العباد من المهالك ، وإلاّ فإنّ سمومها لا تزال تعدي عدواها كلّ ما مسّته أو أصابته ، ومن ثمّ فإنّ جبريل بن عمر وتلامذته لا يمثّلون إلاّ حلقة من حلقات شيوخ قاموا قبلهم خير قيام لإبادة البدعة والمبتدعين ، وأحسنوا البلاء شهداء ومستميتين ، ومهما يكن فإنّ المجتمع الذي وصفه عبد الله بن فودي قد انتشرت فيه ضروب كثيرة من أنواع البدع الحالكة[1].

فهذه مدينة « يَنْدَوْتَ» التي تعدّ ربيعة منطقة « زنفرَ» مجدا لدورها الجليل في رعاية الإسلام وثقافته العربية ، وأنّها بلغت أن تقارن في عظمتها بمدن القاهرة : والقيروان ، وتمبكت ، وولاة ، وجني ، وأقدس ، ولكنّها أمست فيما بعد موئل المتهادنين للكفر ، وأصبح فقهاؤها علماء السوء[2] .

وكانت بلاد « كبّ» أسوأ حالا منها ، لأن كثيرا من أهلها لم يهتدوا إلى الإسلام سبيلا ، وأما مملكة « غوبر» فتحدّث عنها كما تشاء ، فلا جرم أن تكون هذه الحالة الوخيمة هي التي صوّرها عبد الله بقوله :

هذه البلاد وجدنا قومها غرقوا في الجهل نمنعهم أن يفقهوا دينا[3]

وعلى نحو ما كان أدبهم في أيام السلم والأمن يخدم مصالح الإسلام على الصورة العامّة لإخماد البدعة وإحياء السنة ، كان كذلك ينهض في أيام الحرب يهذّب موضوعات عدّة في صميم قضايا هذا الدّين الحنيف لبناء المجتمع القوي العادل العظيم على ضوء شريعة القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف مبيّنا غاياتهما الجليلة من تربية ودعوة وهجرة وأحكامها ، وجهاد ومقاصده ، وما يترتّب على ذلك من نصرة وغنائم ، وأسرى أو هزيمة ،

---

(1) عبدالله بن فودي ، تزيين الورقات ، ص : ٢٢ .

(2) Dr. Garba Na Dama Urbanization in the Sokoto Caliphate. A case study of Gusau and Kaura Namoda

(3) عبد الله بن فودي ، تزيين الورقات ، ص: ٦.

واستشهاد ، وهذا محمّد الثاني بن أبي بكر بوبي ، يقول في معركة الفتوح بمنطقة إلورن : [1]

الحمد لله مهدي هذه النعم ... على جماعة شيخ عالم علم
ثم الصلاة على خير الورى وعلى ... آل وصحب وأتباع ذوي الحكم
لما تحزب أهل الكفر كلّهم ... وأهل بادن لقد بادوا على اسمهم
وأهل أوفا لقد فاءوا بنقضهم ... عهد الأمانة في فعل وفي كلم
قال الأمير فإنّ الحول ليس لنا ... إلاّ إليك إلهي أنت ذو كرم
أعني الأمير عليا ذاك مقصدنا ... لأنّه بيديه فتح مصرهم
قد أنجز الله وعداً كان واعدنا ... تفرقوا ثم خلّوا جلّ مالهم
نساؤهم مع أولاد صغارهم ... صاروا أرقاء في ذل وفي خدم[2]

هكذا كانوا ينهضون بعرض جميل للقضايا الإنسانية سعيا وراء بناء الأفراد والجماعات لا في ذوات أعدائهم فقط ، بل كانوا يلاحظون انحراف بعضهم ، فيقوّمونه بتوجيههم وإرشادهم ، وأصدق ما يقال هنا ما جرى بعد معركة « القاضاوا »[3] بين الإمام عثمان بن فودي وأخيه العلامة عبد الله وأتباعهما إلى أن توفي أوّلهما ، فبويع ابنه محمّد بلو ولم تخمد هذه النار إلاّ بعناية الله ، فهادوا إلى الوئام والسّلم[4] .

---

(1) وهي حصون عديدة اشتبك فيها جنود إمارة إلورن مع جيوش إبادن وما والاها من بلاد يوربا مساندة لـ(أوفا) وتعاطفا مع أويو القديمة المدمّرة.

(2) الإلوري ، الإسلام في نيجيريا ، ص: ١٣٦ ، ١٣٧.

(3) راجع تزيين الورقات لعبد الله بن فودي تجد بائيته تصوّر تصويرا رائعا الحالة القاسية ، ص: ٤٦.

(4) راجع مناقضة محمّد بلّو وعمّه عبد الله بن فودي الرائية ، مخطوطة بدار الوثائق ، صكتو.

وعلى هذه المقاصد الجليلة قام أولئك الأدباء المجاهدون بالتعبير عن المعاني الإسلامية وصاغوها صياغة فنّية ، فكان تراثهم الأدبي حافلا بالأمجاد الخالدة بكلّ ما تؤدي الكلمة من قيمة وجلال وعزة ومنعة ، ولا شكّ أنّ كثرهم عصرئذٍ قد خلفوا دواوين الشعر تحوى أغراضا زاهية في منظور الأدب الإسلامي ، إلى جانب ما لهم من نماذج حية من النثر الأدبي في قضايا التعليم ، والتربية ، والأخلاق ، والسلوك ، والصناعة ، والتجارة ، والسياسة ، والقضاء ، وهي آثار حميدة دوّنوها في أبدع أقوالهم وأروع نصوصهم التي تنطق بأصالة وجدارة ، وتصدق على ما تدعو إليه مقاصد هذا الاتجاه الحديث .

ولما أتى الزمان على أدبنا الحديث الاستعمار الغربي فحاول محاولة يائسة أن يمسخنا لتراثه أدبا وسلوكا وحياة ، ليبدل في هذه الظروف القاسية الشريعة الإسلامية قانونا وضعيا ، والعربية إنكليزية ، والقرآن إنجيلا ، والأدب الإسلامي علمانيا ، قام أدبنا يناوئ هذا الاحتلال الغاشم مناوءة جريئة ، ولم يزل يطارد فلوله من أذنابه الموالين له ، فخلقت لنا هذه الظروف إلى جانب الموروثات فنونا أدبية مستحدثة كالمقالة ، والقصّة ، والرواية ، والمسرحية ، والنقد ، والأدب المقارن ، والأدب الإسلامي ، وما إلى ذلك من جلائل النصّ وفي مقدمة هؤلاء أبناء الوزارة في صكتو ، والوزير محمّد البرنوي « الأطْرَكَمِي » في بده ، والبيغوري ، وأحمد بن أبي بكر إكَوْكَوْرَو في إلورن ، وأحمد الرفاعي أَوْكَيْ أَرَيْ بإبادن ، والشيخ أحمد أَوَيْلَنْجَيْ في لاغوس ، والشاعر إبراهيم الزكزكي ، وإمام بوتش ، والشيخ مالم ناصر الكبري والكافنغي بكنو ، والشيخ صالح بن إدريس ، وشعراء بني غسَوْ ، وكذلك أسرة الأقسام العربية في جامعات عثمان بن فودي بصكتو ، وبايرو بكنو ، وإلورن ، وميدغري ، وكذلك شاركتنا الجامعة الإسلامية ـ ساي ـ بالنيجر ، والجامعة الإسلامية بأوغندا ، ومعهد اللغة فرع كلية الدعوة الإسلامية في جامعة أبومي كلافي بنين ، ومدرسة العلوم العربية بكنو ، ودار العلوم بإلورن ، في بناء هذا الصرح الأدبي العظيم إذ

قدم إليها نفر منا يبشّرون بهذا المنهج[1] ويتذوّقونه ، ثمّ المعاهد العليا الحكومية والإسلامية والحركات الصوفية أساتذة وطلابا ، ويلحق بهم أولئك الشعراء الذين يستمدّون إبداعهم من مصادر إسلامية ، ولكنهم غير قادرين على التعبير بالبيان العربي ، فيميلون إلى أحد الألسنة الشعبية لمخاطبة العوام ، وتدرج بعد إلى حرفة المغنين حتى أباحه العلماء وجعلوا الإسلام شرطاً على الكافرين قبل تعاطيه ومن ذلك إسلام الشاعر الكبير « بابالیبا » .

اللهم إلاّ أنّ قسم الدراسات العربية بجامعة عثمان بن فودي قد أدّت دورا كبيرا لما قامت ولا تزال تقوم به هذه القلعة من عناية فائقة لرعاية الصحوة واليقظة في شتى المجالات ، ليس في ذات شعبتها العربية وحدها بل تتجلى في الجامعة بأسرها ، فانقادت لها حملات ظافرة .

وفي الفكر الإسلامي مثلا أنشأت مركزا إسلاميا لتجميع طاقات علمية موروثة ، ووضعت استراتيجية لعقد ندوات حولية لإحياء الأمجاد الماضية .[2] وفي السياسة تزعمت الدعوة الجريئة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية على صورة شاملة غير مقصورة على التركات والطلاق .[3] وفي الجانب العلمي استضافت في أحضانها « أسلمة المعرفة »، التي تمخّضت بإنشاء قسم الاقتصاد الإسلامي ، وهيأت جوّا ملائما للأساتذة والطلاب لتحقيق أهدافها الجليلة ، ولولا عاديات الزمان التي تعترض طريقتها لازدادت الفكرة نشاطا ونموا مطردا بمنهج

---

(1) ألقى في ظلها الكاتب محاضرتين إحداهما عام ١٩٩٦م والأخيرة عام ١٩٩٩ وهما من فصول هذا الكتاب ، وكذلك نشر في حضنها الأستاذ الدكتور محمد الأول أبوبكر (كتابه خطيب على منبر) ، وعدّه في ميدان الأدب الإسلامي كما قاما بالإشراف على طلاب كثيرين لمرحلة التخرج في هذا المجال .

(2) وتزخر لدى مركز الدراسات الإسلامية مخطوطات تربو على ٣٠٠٠ من كتب ورسائل ومقالات وقصائد ومنظومات ، ثم تحقيق بعضها ولم تزل الأخرى .

(3) راجع لمدير جامعة صكتو الأستاذ الدكتور محمد مهدي آدم في مقدمة: Islamic Law in Nigeria Application and Teaching

الدراسات العليا ، وأتاحت لطلابها فرصة تسجيل رسائلهم به في جميع المراحل ، ثم ازدادت عنايتها عندما عيّن الكاتب أحد أساتذتها عضوا فعّالا للرابطة عقب عودته من الوفادة العلمية إلى الجامعات السعودية ، وخلال ذلك دام التواصل المستمرّ بينه وبين كثير من رواده ، ولم يزل على حسب الطاقة والمقدرة يقوم بالتبشير به والدعوة إليه ، ومن آيات ذلك هذا الكتاب الذي نحن بصدده ، ولله المنّة[1] .

ولما كانت جهود العلاّمة الإلوري تلبي كثيراً من أهداف إسلامية ، لأنّ تراثه على الصورة العامة يدور محوره العام على النهوض بهذا الدين الحنيف في سائر مناحي الحياة ، وما يرمي إليه الكون من أسرار ، لا لأنه أكثر العلماء مادة وثراء فقط ، بل لكونه متصفا بسمة العمق والاستيعاب والابتكار لقضايا الساعة ، وإلى جانب ما يتحلّى به من مرونة وبساطة في التناول والأداء ، فلا بأس أن يكون مدخلاً حقيقيّا إلى الموضوع علما بأننا في دور ربط الحاضر بالغابر ، والله من وراء القصد ، وهو المستعان .

* * *

(1) أثاب الله المثوبة الحسنى «الدكتور صالح أبو القدوس» ، الرئيس الحالي للأدب الإسلامي لما بذل من عناية متواصلة كفتني مئونة التزكية قبل الانضمام إلى الرابطة ، ولا يزال يعقد لي اتصالات عديدة إلى حين تأليف هذا الكتاب .